في الذكرى المئوية لولادة
نسيب عريضة

الإنسان ، والصحفي ، والشاعر

فريد جحا

- ١ -

في شهر آب من عام ١٨٨٧ م[١] ، وفي مدينة حمص ، وُلد لأسعد عريضة ، ونجيبة حداد . طفلٌ سمياه « نسيباً » ، وغمرتهما السعادة لأنه كان بكرهما ، وأملا أن يكون من أبناء اليمن والبركة .

إلا أن آمال والديه لم تتحقق إلا معنوياً ، فلقد غادرهما نسيب ، كما سنرى ، إلى الناصرة ، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية ، حيث عاش متعباً ، فقيراً ، مقتّراً عليه في الرزق ، ومات من دون أن يهنأ سنةً في حياته ، أو أن يوفق في أعماله ، لذلك لم يكن غريباً أن يشكو في شعره شكوى مرة تجلت في هذه الأبيات[٢] :

غنّى المغني في سكون الدجى ... فقال لي صحبي : أما تسمعُ
نراك لاتحسو كؤوس الطلا ... ولاتنادي : آه ، أو تخشع
قلتُ : دعوني مطرقاً حائراً ... فليس لي في لهوكم مطمعُ
إذا سمعتم فأنا سامع ... ماليس يصبيكم ولا يُمتع
أبعدُ من ضجة ألحانكم ... عاصفُ أنغامٍ به أرتعُ
قرارها الحزن ودولابها ... كآبةٌ ضاقت بها الأربعُ

إلا أن نسيباً عوّض عن هذا كله مكانة أدبية سامية تجلت في شعر ممتاز ، ودور هام قام به في مسيرة الأدب المهجري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

- ٢ -

درس نسيب عريضة في المدرسة الروسية الابتدائية بحمص ، ولما تخرج منها متفوقاً أوفد إلى المدرسة الروسية في الناصرة بفلسطين ليكمل دراسته العالية من جهة ، وليتخرج معلماً من جهة ثانية . قضى في الناصرة أربع سنوات (١٩٠٠ ـ ١٩٠٤) وحاز شهادة مدرستها بتفوق رشحه للإيفاد إلى الروسيا لإكمال تعليمه العالي ، إلا أن نشوب الحرب الروسية ـ اليابانية في عام ١٩٠٥ ألغى هذا المشروع ، فحول نسيب وجهته إلى الولايات المتحدة الأميركية ، فنزل في نيويورك حيث عمل في التجارة حيناً ، وفي الطباعة حيناً آخر ، فقد ملك مطبعة باسم (الأتلنتيك) ، وأصدر عنها مجلة (الفنون) عام ١٩١٢ م التي كانت « رأس المجلات الأدبية وأولاها وأرفعها قيمة ، وكانت تنشر المواضيع العلمية والاجتماعية والأدبية والفنية »[٣] . إلا أنها احتجبت بسبب ظروف الحرب ، ثم عادت إلى الظهور في عام ١٩١٦ لتحتجب بعد مدةٍ قصيرة . وهكذا انتهى عمر مجلة الفنون ، فحزن نسيب عليها حزناً عظيماً لأنها بقيت في قلبه « حلمه القتّال »[٤] .

وعمل نسيب ، بعد هذا ، في التجارة مع أبناء عمه ، وتزوج في عام ١٩٢٢ من نجيبة حداد أخت عبد المسيح وندرة حداد ، ولم يرزقا أولاداً .

ثم تقلب في أعمال مختلفة ، فترك التجارة ، ورأس تحرير جريدة (مرآة الغرب) ثم جريدة (الهدى) ، وعمل إبّان الحرب العالمية الثانية في مكتب الأخبار العائد للولايات المتحدة نحواً من سنتين ، واستقال معتزلاً العمل لضعفٍ في كبده وقلبه ، وعكف على جمع ديوانه وطبعه . إلا أن المنيّة لم تمهله حتى يراه بين أيدي القراء ، فمات بينما كان الديوان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في عهدة المجلّد ، في الخامس والعشرين من شهر آذار عام ١٩٤٦ ، فحزن عليه الجميع ، ونعوه ، وبكوه في احتفال مهيب في بروكلين . وعبّر ميخائيل نعيمة عن مشاعر الناس جميعاً حين أبّنه من إذاعة لبنان ، ذات مساء من نيسان عام ١٩٤٦[٥] : « شعر نسيب المطبوع بجمال روحه ، العابق بأريج شخصيته الوديعة ، الحيية ، النافرة من حب الظهور والادعاء ، المشهورة في أتون الشوق إلى معالم (إرم) ... ذلك الشعر ريحانة نادرة في حديقة الأدب العربي ، ومن حق أبناء هذا الشرق ، شرقنا ، أن يضمّخوا أرواحهم بطيوبه » .

- ٣ -

أجمع كلُّ الذين كتبوا سيرة نسيب عريضة على تحليه بأخلاق نادرة ، وكان ميخائيل نعيمة أقدرهم على ذلك لمعرفته الشاعرَ عن قرب ، باعتباره زميل دراسته في مدرسة الناصرة ، وفي الرابطة القلمية في الولايات المتحدة الأميركية . فهو يقول فيه[٦] : « نسيب عريضة ، من حمص ، معتدل القامة مع ميل إلى السمنة ، في نظراته الهادئة عمق وحزن ووداعة ، وفي حركاته بطء واتزان . رصين في تفكيره وحديثه ، مخلص في صداقته . يكره الثرثرة والجدل والنميمة وتصدُّر المجالس . خجول في المجالس الغريبة عن فطرته وذوقه ، بعيد عن التكلف والصنع وحب الظهور . كان أوسع إخوانه في (الرابطة) اطلاعاً على أخبار العرب وآثارهم ، ذو طبيعة غنية ، متعددة الجوانب ، منكمشة على ذاتها ، لاتظهر على حقيقتها إلا في مجالسة النخبة من خلانها الأصفياء ، وكان نسيب يحب الأكلة الطيبة ، والكأس المشعّة ، وله ولع بلعب البوكر وتدخين السيكار . وكانت لي ولجبران وعبد المسيح سهرات في بيته قبل أن يتزوج حافلة بأمتع الذكريات . فلقد كان يتولى هو الطهي ويحسنه إلى حد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعيد . ويتولى الباقون أشغالاً ثانوية كتحضير السلطة ، وترتيب المائدة ، وغسل الصحون وغيرها من أدوات الطعام وتجفيفها الخ ... وكنتُ أقلّهم نفعاً في تلك الأمور ، وأبطأهم في ميدان الشراب . فحين كان نسيب يشرب الويسكي أكواباً ، ويشربها صرفاً ، وكان جبران وعبد المسيح لايقصران عنه كثيراً ، كنت أسكب لي قليلاً منها في قدح ، وأملأ القدح ماء ، ثم أمضي أحسوها حسو الطائر للماء إلى أن ننتهي من الأكل والشرب .

تزوج نسيب شقيقة عبد المسيح بعد تأسيس الرابطة . والاثنان لم يرزقا أولاداً . لم يصدر نسيب من شعره غير مجموعة واحدة أسماها « الأرواح الحائرة » . على أنه ترك الكثير من المخطوطات بين شعر ونثر . اشتغل في مؤسسات تجارية فترة من حياته ، كما عمل في تحرير (السائح) و (الهدى) بعد (الفنون) » .

وأضاف جورج صيدح[٧] إلى ذلك تعريفاً بدوره في الرابطة فقال : « كان رحمه الله ركناً متيناً من أركان (الرابطة القلمية) وموضع ثقتها ، عرف بالإخلاص والغيرة عليها . أحبه الجميع لدماثة أخلاقه ونبل روحه وعفة قلمه ولسانه . امتلأ قلبه الكبير بالحب الإنساني ، فلا موضع فيه للبغض والحسد والكبرياء . وهو الذي وجه اهتمام جبران إلى دراسة اللغة العربية وآدابها وتاريخها ، وقد لقبوه بسيبويه العصر لأنه كان أوسع الأدباء الرابطيين اطلاعاً على هذه المواد وأكثرهم تمكناً من الأدب العربيّ القديم » .

- ٤ -

ولأنه كان أكثر أعضاء الرابطة اطلاعاً على الأدب العربي ، تنوعت مجالات شعره وموضوعاته ، فنظم ملحمة (على طريق إرم) ، واحتضار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبي فراس ، وديك الجن الحمصي ، وقصة الصمصامة . الأولى والثانية موجودتان في ديوانه[٨] ، لذلك يسهل التعريف بها وتقويمها . أما الثالثة والرابعة فمنشورتان في مجموعة الرابطة القلمية الأولى ، ولم يتح لنا الاطلاع عليهما . على أننا نملك لهما تقويماً جاء فيه[٩] : « ديك الجن الحمصي ، وقصة الصمصامة ، قصتان تتجلى فيهما موهبة نسيب الفنية في القصة بنوع عام ، والتاريخية منها بنوع خاص ، فقد اجتمعت له أسبابها ، من حبكة قوية ، ووحدة فنية متماسكة ، وديباجة مشرقة ، وخيال جميل ، مع المحافظة على حصة التاريخ من القصة الفنية » .

و (على طريق إرم) منظومة شعرية أخذت من الديوان تسع عشرة صفحة[١٠] وكانت في ستة فصول : (أول الطريق ، والقلوب على الدروب ، والطلل الأخير ، وفي القفر الأعظم ، والقيروان ، ونار إرم) . وإذا ما كانت (إرم ذات العماد) المدينة العجيبة الأسطورية التي بنيت بالذهب واللؤلؤ والجواهر ، فإن (إرم) التي يتحدث عنها الناظم في ملحمته هي (إرم) الروحية التي يسير الشاعر مراحل مع قافلته في طلبها ، ويصف طريقه مرحلةً مرحلة ، حتى يخيل إليه في الأخير أنه رأى نارها من بعيد . ولكنه لم يصل إليها[١١] » . وتحاور فيها القلب والعقل في صراعٍ عنيف للاستئثار بمركز القيادة في معركة الحياة . وتكتب الغلبة للقلب فيسير في طليعة القافلة ، ثم تثور العاصفة فتفتك بالقلب والعقل معاً . ولا يقترب الشاعر في النهاية من نور المعرفة ولا يعود إلى الإيمان الخالص ، ولكنه يصرّ على التحديق في النور البعيد .

نقرأ في المرحلة الأولى (أول الطريق)[١٢] :

تفتحت أعين الـــــدراري واستيقظت أنفس الليـــالي
وهيمنت في الـــدجى الأمـــاني ورفرفت أجنـــح الخيـــال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأفلتَ الحلم من عقـــــال فطـــار يسعى إلى الجمـــال
فقم بنـــا ، يـــاسمير نفسي تقفـو الأمـــاني إلى الكمـــال

ونقرأ من المرحلة الأخيرة (نار إرم)[١٣] :

تلـــك نـــار العلم أوقِـــــدَتْ في إرم
قبـل عهـــد القِـــدم مـــالهـــا من خمـــودْ
أو تـــزول العهـــودْ
نحـــو ذاك الـــوميضْ سرْ بنـــا نستعيضْ
عن ظـــلام الحضيضْ وشقـــاء الـــوجـــود
بسنـــاءِ الـــوعـــودْ
إيـــه ، ضـوئي البعيـد ! لـحْ ولُـحْ مـاتريـد !
ليس طرفي يحيـــد عنـــك حتى يعـــود
لترابٍ ودودْ
لُـحْ ولُـحْ في الفضـــاءْ قـــد سمعتُ النـــداء
ودليلي الرجـــاء فعســـاه يقـــود
ظـــامئـــاً للـــورودْ

- ٥ -

ويبقى الديوان أهم آثار نسيب ، وهو الذي كفل له الخلود بما ضمَّ من شعر جديد ممتاز مضموناً وشكلاً .

أعطاه الشاعر عنوان (الأرواح الحائرة) . وفي مقدمة (حبيب إبراهيم كاتبة) للديوان[١٤] حديث مطوّل عن حيرتين نجدهما في قصائده : الأولى الحيرة الصغرى التي تنم عن سَوْرة اليأس المستمدة من منكدات الزمان ومزعجاتها ومثالها[١٥] :

رفعتُ كأسي حين لـــجَّ الهـــوى واستعصت الأشجـــانُ في راسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصحتُ مغروراً بطيش الصبـــا أين النـدامى ؟ أين جُـلاّسي ؟
فلم يجبْني أحـــــــدٌ منهمُ سـوى الصَّبـا مرَّت بـأنفـاسي
فقلتُ : إن كان على مـــا أرى أمري فخـلٌ النـاسَ للنّـاسِ
وقمتُ والكأس علتْ في يـــدي رفعتُهـــــا أعلى من الراسِ
شربتُ وحـــدي نخبَ نفسي ولم يقلقني هـــاتفٌ وســواسِ
وكان سمّـاري نجـوم الـدجى وكانت الآمـــال جـــلاّسي
رأيتُهـــــا تهتزُّ سكراً معي منشـــدةً نغمـــة إينـــاس :
« اشرب وحيـــداً أيُّهـــذا الفتى ولاتصمْ عن لـــــذة الكاس »

والثانيـة : الحيرة الكبرى . وهي حيرة كونيـة تشمل الزمـان والمكان برمتيهما ، وهي سَـوْرة روحٍ أزليـــة تغلي في مرجـلٍ ملـؤه السماوات والأرض ، سمعنا صدى زفيرها وأنينها جيلاً بعد جيل .

« وهـذه الحيرة تجعل شعره في مصـاف الملهمات الخـالـدات التي يبـذُّ فيها أقرانه »[١٤] .

ومثالها قصيدة (يانفس)[١٦] التي يخاطب الشـاعر فيهـا نفسـه ليجـد ضروب الشـك واليقين والحيرة والاطمئنـان تتجـاذب نفســه ، وتتجلى في شعر بديع لايعرف الإنسان أيَّ أبياتها يختار :

يـــانفس مـــالـــكِ والأنينْ ؟ تتـــــألمين وتـــؤلمينْ ؟
عـــــذّبتِ قلبي بـــــالحنينْ وكتمتِـــه ، مـــاتقصـــدينْ ؟

☆ ☆ ☆

قـــد نـــام أربـــابُ الغرامْ وتـــــدثروا لحفَ الـــــلامْ
وأبيتِ ، يـــانفس ، المنـــامْ أفـــأنتِ وحـــدك تشعرين ؟

☆ ☆ ☆

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يـانفسُ مـالـك في اضطرابْ كفريسـةٍ بين الـذئـابْ ؟
هـلاّ رجعتِ إلى الصـوابْ وبـدلتِ ريبـك بـاليقين ؟

☆ ☆ ☆

أحمـامـةٌ بين الريـاحْ قـد سـاقهـا القـدَرُ المتـاحْ
فـابتـلّ بـالمطر الجنـاحْ يـانفسُ ، مـالـكِ ترجفين ؟

☆ ☆ ☆

أوَ مـالحـزنـكِ من براحْ حتى ولـو أزف الصبـاحْ ؟
يـاليتَ سرّكِ لي مبـاح فـأعي صـدى مـاقـد تعينْ !

أما أسباب هذه الحيرة فنجدها لدى صيدح[١٧] : الإخفاق في ميدان الصحافة ، وماتبعه من احتجاب (الفنون) ، الإخفاق في ميدان التجارة لرجلٍ يملك « جناحَ مَلاك ، وقلبَ قديس ، في بلد تهوي فوقَه مطارق الدولار الفاجر[١٧] » ، العمل في مجالات بعيدة عما يريد ويهوى ، فجيعته بأخيه سابا ، وبأخته ليديا ، لذلك غدا غريقاً في لجة الأحزان ، يستغيث بربه تارةً ، وبقلبه طوراً ، ويتعلّق بالفلسفة وسيلة للنجاة فتخونه . فإذا ماأعيته الحيلة في تفسير التفاوت في حظوظ البشر ، وفهم أسباب الخلل الدائم في نظام الحياة ، وعجز عن فهم حكمة الخالق في تعذيب خلائقه ، استحوذت عليه الحيرة ، فأصبح شاعرها الأول ، وأطلق اسمها على الديوان (الأرواح الحائرة) :

ياأخي ! ياأخي ! المصاعبُ شتّى وبعيـدٌ مرادُنـا والمـوارِدْ
وأمـامَ العيـون دربٌ عسير لم تسر قبلنـا عليـه الأوابـدْ
مظلم ، مـوحش ، كثير الأفـاعي والسعالي المستهويـات الطرائـد
غير أن المسير لابـد منـه إن أردنـا إدراكَ بعض المـواعـدْ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلنسرْ في الظلام، في القفر، في الوحـ ـشة، في الويل، في طريق المجاهد
فلنسرْ ! فلنسرْ ! وإمّا هلكنا قبل إدراكنا المنى والمواعد
فكفانا أنّا ابتدأنا وأنّا إن عجزنا فقد بدأنا نشاهد[١٨]

- ٦ -

وجميلٌ هذا الصمود في وجه المصاعب ، ولولاه لاستولى اليأس على قلب الشاعر ، وقتله ، وحرمنا من شعره الكثير الكثير الذي لم يقتصر على الحزن والحيرة . ففي الديوان أغراض أخرى . فيه قصيدة غزل جميلة جميلة ، يتغنى فيها (بغادة العاصي)[١٩] ، وهي غادة جميلة كأولئك الغيد اللائي يخطرن على شاطىء العاصي قرب (الميماس) . إنه محب يعيش قلبه على أمل اللقاء ، ويراه أصحابه صبّاً مدلّهاً ، فيسألونه عمن شغف قلبه حباً[٢٠] :

عرف الصحابُ صبابتي فتساءلوا : بمن الفتى عنَ لهونا يتشاغلُ ؟
هي نشوة في القلب ظل زائل من بعدها يصحو وينسى الغافلُ
فأجبتُهم : حبّي قديمٌ زاكي
هو راسخٌ في النفس مابقيَ الجسدْ ولقد يدوم مع الخلود إلى الأبدْ
حوريّتي لاتسألوا عنها أحدْ أو ماعلمتم أنها بنتُ البلد ؟
من حمصَ مطلعُ لحظها الفتاكِ

وتلوح له ،من خلال الذكرى ، أسرابُ الغيد تخطر حول العاصي :

فتحتْ لقلبي قصرَه وعلاليه فوقَ المجرّة بنتُ حمصَ الغاليه
وهواكِ لاأنساكِ قربَ الساقيه أو في المروج وفي الرياض الزاهيه
وأحبُّ حمص لأنها محباك

وفي الديوان أحياناً أخرى تصوّفٌ واعتزال . فلقد كان ، من نتيجة ثورته ، يأسٌ قاتل ووحدة قاسية وزهد في الكون وكل مافيه من مظاهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خادعة ولذات فارغة[٢١] :

لما رأيتُ العيشَ لا يشفي ولا يروي أوامي
والناس يزحم بعضُهم بعضاً عدلتُ عن الزحام
المالُ ما يبغونَ لكن لستُ أقنعُ بالحطامِ
عجباً ! أيطمع بالغنى من ليس يطمع بالدوامِ[٢٢] ؟

وقد يبلغ منتهى التشاؤم ، وغاية اليأس الذي مابعده رجاء ، في مقطوعته الحزينة القاتمة التي يبدؤها بقوله[٢٣] :

علّقتُ عودي على صفصافة الياس ورحتُ في وحدتي أبكي على الناس

وفيها يقول :

ماأروع الزهرة السوداء قد شقيتْ بدمعةِ القلب تحميها يد الياس !
يا يأس صُنْها فإني قد قنعتُ بها ولستُ أبدلها بالورد والآسِ
إني جعلتك ناطوراً لروضتها إياك أن تجتليها أعين الناس
وأنتِ والحزنُ كونا في الضلوع معي إني عهدتكما من خير جلاسي

- ٧ -

وفي الديوان قصائد كثيرة في الحنين إلى حمص التي لاينساها الشاعر . فيه قصيدة (سلة فواكه)[٢٤] ، وقصتها أن الشاعر كان يمر بسوق في مدينة نيويورك ، فاستلفتت نظره سلة فواكه فيها عنبٌ وتين ورمان ، ولقد ذكرته هذه السلة بثمار الشرق ، فوقف يرقبها ويذكر أزماناً ماضية :

سَلٌّ عليه ثمارُ الشرقِ أحلاها لمتجرٍ عرضوها لا لمعناها
وقفتُ أرقبها والقلب قد تاها في بحر ذكرى تناديني بقاياها
إلى عصورٍ خلتْ من قبلِ أزمانِ

وقف الشاعر وحده من دون الناس ، وقف يرقب سلَّ الفاكهة ، وإذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تعاطفٌ روحيٌّ يقوم بينهما ، وإذا بها تبسم له ، وكأنها عرفتْه غريباً :

وقفتُ رغماً وحولي الناسُ ماوقفتْ أراقبُ السلَّ والأثمار قد بسمتْ
كأنهـــا إذ رأتني ذاهـلاً عرفتْ أني غريب فحيتني ومـــانطقتْ
فطار قلبي حنيناً نحو أوطاني

- ٨ -

وقصيدة (أمّ الحجار السود)[٢٥] من أروع شعر الحنين العربي ، وأروع قصيدة قيلت في الحنين إلى حمص ومغانيها . نتهم ذوقنا بالتحيّز ، بعد أن عشنا أياماً حارةً من شهر أيلول الماضي فكان لنا روحاً وريحاناً ، إلا أننا كلما عدنا إليها ، وجدنا وجهاً جديداً من وجوه الجمال في المبنى والمعنى معاً.. وهاأناذا أنقلها ليشاركني القراء إعجابي من جهة ، وليقولوا كلمتهم فيما أذهب إليه من تقويم لها من جهة ثانية :

(أم الحجار السود)

صورٌ تلوح لخاطر المعمودِ
مابين أرباض المنى والبيدِ
خفّاقةٌ فيها بنودُ العيدِ
بسامةٌ فيها ثغورُ الغيد تجلو رؤى ماضي الهوى المفقودِ
وقف الفؤادُ أسيرَ بارق نارها
يهفو إلى مالاح من أسرارها
لمن الديار تذوب من تذكارها
من بعد طول نوى وفرط جحود ياموثقاً من شوقه بقيودِ
رُفعت لطرفك من مكان قاصِ
تختال بين حدائق وعراصِ
أعرفتَ ياقلبي عروسَ العاصي ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

محبي أمـــانينـــا ومحيـــا الجـــود ونعيم راضٍ بـــالـــوجـــود سعيـــدِ
أعرفتَها تلـــك الربـوع العـــاليـــهْ
مـــابينَ لبنـــانٍ وبينَ البـــاديـــهْ
الـذكريـات وقـد برزن عـلانيـهْ
نـــادَيْنَ عنـــك بحسرة المطرود ياحمص يابلدي وأرضَ جدودي !
جثمتْ بكلكلهـــا على درب الأممْ
جبـارةً من طبعهـا رعيُ الـذممْ
بلـد الهوى أحجارُها سـود ـ نعم
لله درُّ ســـــوادك المعبـــــود ! يـاحمص يـاأم الحجـار السـودِ !
مـاذا يكابـد في الهـوى ويقـاسي
صبٌّ يحن إلى حمى الميـــــاسِ
وإلى الـــدوير ، إلى ربـوعِ الكاسِ
وكنـاسهـــا وغـزالهـــا الأملـودِ وإلى مغـــاني نعمـــةِ وسُعـود
يادهرُ قد طالَ البعـاد عن الوطنْ
هل عودةٌ تُرجى وقد فات الظعنْ؟
عـدْ بي إلى حمصٍ ولو حشوَ الكفنْ
واهتف : أتيتْ بعـــاثرٍ مردودِ واجعـل ضريحي من حجـارِ سـودِ
ياجـارةَ العـاصي إليـكَ قـد انتهى
أَمَلي وأنت المبتغى والمشتهى
قلبي يرى فيـك المحـاسنَ كلَّهـا
وعلى هـواكِ يـدينُ بـالتـوحيـدِ يـاحمصُ يـاأمَّ الحجـارِ الـسـودِ

ألم تغدُ حجارةُ حمص السود ، بعد قراءة هذه القصيدة ، زاهيةً مشرقةً كورود نيسان ؟ ألا يتمنى كل منا لو تتحقق أمانيه بالعودة إلى وطنه بعد غربة مديدة مريرة ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ٩ -

وفي الديوان أيضاً قصيدة (نشيد المهاجر) التي تعتبر واحدة من أروع قصائد الشعر القومي ، لا في شعر المهجر فحسب ، بل وفي كل شعر قاله العرب في العصر الحديث . يعزّزُ من قيمتها أن قائلها عربي ترك بلاده في أسوأ الظروف ، وعاش بعيداً عنها في ديار عجمة كان فيها غريب الوجه واليد واللسان . ومع ذلك ، فقد أنشد هذه القصيدة التي تفيض حنيناً عاصفاً ، وعروبة صافية ، وتغنياً بالوحدة العربية من المحيط إلى الخليج ، في زمن لم يكن الناس فيه قد تفهموا فكرة الوحدة العربية كما نفهمها نحن اليوم . ولقد اخترنا منها مايلي[٢٦] :

تهزُّ في الغرب ذكر الأرز والبانِ ماهذّبتك ليالي البعد ياعاني ؟
أحاضرٌ أنت ؟ أم بادٍ ؟ أمهتجرٌ في الغرب؟ أم هائم في بيْد قحطان؟
أكلما هبت الأرياح خافقةً تجرُّ في ذيلها أنفاسَ ريحان
حسبتَها نسماتِ الشيح فانطلقتْ من أسرِها زفراتُ العاجز الواني ؟
وليس يرويك إلا نهلة بعدت من ماء دجلة أو سلسال لبنان
من أنتَ ؟ ماأنتَ ؟ قد وزّعتَ روحك في
عهدين من شاسعِ ماضٍ ومن دانِ؟
أنا المهاجرُ ذو نفسين واحدة تسير سيري وأخرى رهن أوطاني
ابنُ العروبة لاأسلو الربوعَ ولو كانت مثيرةَ أوصابي وأشجاني
تدفقي ياريا ح الشرق هائجةً فأنت لاشك من أهلي وإخواني
تغلغلي بين أضلاعي إلى كبدي وخفّفي من حرور السائل القاني
وذكّريني بما أُنسيتُ من أملٍ وجنحيني أرفرفْ فوق أوطاني
أنا المهاجر لاأنسى الوداع وما جرى من الدمع في أجفان غزلان
الأهل أهلي وأطلالُ الحمى وطني وساكنو الربع أترابي وأقراني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد كنتُ أشتاقهم والعين تنظرهم ... ياعظمَ شوقي على بعد وهجران
إن أنكرونا فما والله ننكرهم ... وإن جفوا لانقابلُهم بنسيان
نحبهم كيفما كانوا وإن ركبوا ... مراكب الهجر من آنٍ إلى آن
أنا الذي إن تناسى الناسُ قولهم ... هيهات ينسى، وماالكفرانُ من شاني
إن جاهدوا كان قلبي في جهادهم ... وإن تنادَوا يلبِّ الصوتَ وجداني
لاحدَّ عندي إذا جارت حدودهُمُ ... الشامُ شامي ، ومصر أخت لبنانِ
وفي فلسطين أقداسي ، وعاطفتي ... في نجدَ ، والقِبلةُ السَّمحاءُ إيماني
ليَ العروبةُ أمشي في مخارفها ... من العراقِ إلى مابعد وَهْران
أزهو بثوبٍ فخارٍ من مناسجها ... حتى تقرَّب أيدي البين أكفاني

- ١٠ -

وواضح مافي هذا الشعر كله من قربٍ من الأصالة العربية ، وواضح أيضاً مافيه من تجديد في الصور ، ومن بعد عن التكلف والتعقيد والإغراق في البيان والبديع . ولابد من الإشارة إلى إفادة نسيب عريضة من الموشحات ، ومن أساليب الشعر الحديث ، فاستعمل أوزاناً جديدة ، ونوع في القوافي ضمن القصيدة الواحدة . ففي موشحته (النعامى)☆طرافة وجدَّة ،فهولاينهج فيها نهج الموشحات الأندلسية تماماً ، بل يغير ويبدّل ، ويدخل ماشاء له ذوقه الموسيقي من زيادة في التفاعيل أو نقص . وهو يقسم القصيدة إلى مقطوعات تتميز كل منها بنغمٍ خاص ، وتسير في بحر معين إلى أن تلتقي بتاليتها ، في توافق وانسجام ، مما يجعل هذه القصيدة الطريفة أشبه بأوبريت غنائية صالحة للتلحين ، ملائمة كل الملاءمة للنغم الموسيقي . فلنقرأ قوله في بعض مقاطعها[٢٧] :

☆ النعامى : من أسماء ريح الجنوب لأنها من أبَلّ الرياح وأرطبها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هيـــا بنـــا يـــانـــدامى
فقـــد أتتنـــا النُّعـــامى
تجرُّ ذيـــلَ الربيـــعْ
قـــد زال قيـــد الثلـــوجْ
هيـــا ابصروا في المروجْ
صنـــعَ الجمـــالِ البـــديـــعْ

وهو هنا يستعمل أحد البحور العربية القليلة الاستعمال في الشعر العربي ، ونقصد البحر المجتث ، ويضعه في قالب من التوشيح الأندلسي البديع .

وهو ينوّع في القوافي كثيراً ، ومن ذلك قصيدته (من نحن ؟) التي يقول فيها[٢٨] :

أبتْ لياليـنـا الطربْ واستوحشت أيـامنـا
والعمر ولّى وذهبْ ولم ننـل منـه المنى
هنـا بربـات الجمـالْ فمـا قنعنـا بـالصورْ
وكم ظفرنـا بـالوصـال فلم نجـد فيـه الوطرْ
من نحن ؟ هـل نحن بشرْ نحيـا ونمضي حـالمين
أم نحن من طينِ الضجر لسنـا كبـاقي العـالمين ؟

وله رباعيات كثيرة تأثر فيها برباعيات الخيام ، إذ فيها تشع روح عمر من خلال الكلمة والمعنى على السواء[٢٩] :

شربتُ كأسي أمـامَ نفسي وقلتُ : يـانفسُ مـاالمرامْ ؟
حيـاة شـك ومـوت شـك فلنغمر الشـك بـالمُـدام
آمـالنـا شعشعت فغـابت كالآل أبقى لنـا الأوام
لابـأسَ ، ليسَ الحيـاةُ إلا مرحلـة بـدؤهـا الختـام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

- ١١ -

ولم يكن نسيب عريضة شاعراً فحسب ، بل كان كاتباً ، كتب المقالةَ التي ارتفعت عن المستوى الصحفي العفوي ، وكادت تقارب ، في بعض الأحيان ، مستوى المقالة عند أبي ماضي . « والذاتية هي الصفة الغالبة على مقالة عريضة ، على الرغم من أنها قد تعالج موضوعات عامة . فقد كان يصور انفعاله بالموضوع ، شأن الشعراء ؛ وإننا لنجد في مقالته جَيَشاناً نفسياً ، كما نجد كل خصائص تجربته الشعرية : الانفعال العميق ، والاندفاع في المسلك الذي تبعثه عوامل نفسية بعيدة ، كثيراً ماتكون مندفعة من أغوار النفس ... على أنه يهدأ أحياناً فيصور تصويراً يستخدم فيه التشخيص والحوار[٣٠] » .

كما كتب نسيب عريضة القصة مرتين ، أولاهما (قصة الصمصامة[٣١] التي جمع فيها أخباراً كثيرة من التاريخ جعل محورها (سيف أبي عبد الله آخر أمراء العرب في الأندلس) ، وهي أخبار ، في رأينا ، لايمكن أن تصنع قصة ، وإنما هي حلم مصطنع من أحلام اليقظة ، والأحرى أن تسمى تاريخ حياة سيف .

كما كتب قصة (ديك الجن الحمصي) ، وهي القصة التاريخية الوحيدة في أدب الرابطة القلمية . وهذه ظاهرة يفسرها مانعلم من ضعف صلة كتّاب الرابطة بالتراث القديم ، بينما كان نسيب عريضة شديد الكلف به والحرص على قراءته .

ويغلب على الظن أن عريضة قد استقاها من كتاب (الأغاني) فهو أول مصادرنا عن الشعر ، وأقربها إلى الكاتب ، فضلاً عن أنّ بناء القصة ووقائعها يثبتان هذا الظن[٣٢] .

وإذا ماكان النقاد قد أخذوا على نسيب « عدم توفيقه في تصوير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشخصيات أو في تفسير المأساة ، فإنه قد وشّى صورَه بالأخيلة الجميلة التي شغلته عن تحليل الشخصيات في القصة ، فبدا أشدَّ اهتماماً بالصورة ، حتى أوشك أن يهبها النطق والإدراك في بعض الأحيان[٣٥] .

وكتب نسيب أيضاً المثَلَ في مقالة بعنوان (أمثال بمغزى وبلا مغزى[٣٦]) ، جرى فيها على طريقة الأمثال التعليمية الخرافية .

ولقد وفق في كتابة أمثاله لما طُبعت عليه نفسه من حب التأمل والمضي فيه لاكتناه حقائق الحياة والنفس ، وما كان ينتابه أحياناً من تعب ويأس .

وفيما يلي نموذج من أمثاله[٣٧] : « رأيتُ فرسين يجران عربة مثقلة بالأحمال ، والسائق يعمل السوط في ظهريها ، ورأيت رجلاً يؤنب السائق لقسوته ويقول له :

ـ عارٌ عليكَ أن تقسوَ على الحيوان الأعجم . لو أُوتيَ هذان الفرسانِ النطقَ لسمعتَ منهما شكوى أليمة توقر آذان البشر .

وسمعت إذ ذاك أحدَ الفرسين يخاطبُ أخاه باللغة التي لايفهمها الناس قائلاً :

ـ انظرْ إلى هذا الآدمي . وارحمتاه له ! ماأكبر الحمل الذي وضعه القَدَر على منكبيه ، وهو ـ مع ذلك ـ يدافع عنا ويرثي لنا !

فحمحم أخوه وقال :

ـ إنه كسائر الناس مثقل بحمله ، ولايحاول التخلص منه . أتدري ماالسر في ذلك ؟ سمعت من أحد حكمائنا أن الآدمي لايرى الحمل الذي أثقلته به الحياة ، ولايشعر باللجام الذي ألجمه به القضاء ؛ ولذلك تراه يسير متحاملاً ، يحسب نفسه أمير الكائنات ، وسيد الأحرار ، ويؤلف الجمعيات للرفق بأمثالنا ، وهو أحق بالرحمة والشفقة منا لو يدري » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

- ١٢ -

وكان نسيب عريضة صحفياً أيضاً . أصدر مجلة (الفنون) « لتفتح طريقاً جديداً بين خرابات العالم الأدبي العربي[٣٨] » ، فكانت أولى مجلات المهجر الراقية التي رفعت راية النهضة الأدبية ، ونشرت بواكير أدب جبران ونعيمة . ويظهر أنها كانت أرقى من مستوى محيطها العربي ، فلم يقبل عليها القراء إقبالاً يضمن لها البقاء ، فكانت تحتجب ثم تعود إلى الظهور تبعاً لتردد المشتركين بين المماطلة والمناصرة[٣٩] .

لذلك كان ألم نعيمة بسبب احتجابها كبيراً « كانت زنبقة هيفاء فواحة في حقل الأدب ، كنا نتعشقها ونغار عليها غيرةَ غارسِها وولي أمرها ـ نسيب عريضة ـ وأشد ، فقد كانت لنا ، ولكتلة صغيرة من الأدباء في نيويورك ، بوقاً صافي اللون لانخجل من أن ننفخ فيه من أرواحنا . وكانت يداً جميلة ونظيفة يلذ لنا أن نضع في راحتها نتفاً من قلوبنا وأفكارنا لتحملها إلى من تهمهم قلوبنا وأفكارنا[٤٠] » .

أما نسيب فقد كتب إلى نعيمة :« لقد خسرتُ معركتي وسقطتْ آمالي حولي . والآن وقد فرغ مالي ، وبخل عليَّ المشتركون بما عليهم ، فليس لي إلا أن أقف ، وقد وقفت . ولاأدري أتتحرك رجلاي فيما بعد ، أم تيبسان إلى الأبد[٤١] ؟ »

إلا أن رجليه لم يقدر لهما أن تيبسا إلى الأبد لأن الفنون عادت إلى الحياة بعد توقف استمر عامين (أي في عام ١٩١٦) وسارت في طريقها بنشاط ، ثم كبا جوادها ، « فخرَّت في النهاية صريعةً تحت أقدام جهادها الشريف ومبدئها الأدبي الصادق ، وكان توقفها النهائي في عام ١٩١٨ . وعبثاً حاول نعيمة وجبران أن يعيداها إلى الحياة للمرة الثالثة ، إلا أنها لم يوفقا فالذين كانت قلوبهم في (الفنون) كانت جيوبهم في عالم الشكوك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والظنون ، والذين كانت جيوبهم تعج بالذهب ، كانت قلوبهم بعيدة عن الأدب[٤٢] » .

ولما أخفق نسيب في عمله التجاري عمل رئيساً لتحرير جريدتين وأسهم إسهاماً كبيراً في تحرير مجلة السائح من جهة ، وفي تهيئة أعداد الرابطة القلمية والكتابة فيها من جهة ثانية . وكان لمقالاته مزية خاصة تجمع بين عاطفية المضمون وطلاوة الأسلوب .

- ١٣ -

وبعد ، فمكانة نسيب عريضة في الأدب العربي ، والأدب المهجري تتحدد في مجالَي الشعر والنثر معاً . إلا أن الشعر كان مجاله الأرحب الذي خلَّد اسمه بين شعراء المهجرة لما فيه من نزعة إنسانية ، وتفكير فلسفي لطيف ، وتصوف محبب إلى النفس ، وغزل رقيق ، وقبل ذلك كله هذا الحنين الرائع ، وهذه العروبة الصافية : عروبة تعتزُّ بالانتماء إلى هذه الأمة العريقة من جهة ، وتعتبرُ وطنها العربي واحداً لاحدود تفصل بين أقطاره ولاسدود ، من جهة ثانية .

وهو قبل هذا كله ، وكما قال صديقه وزميله نعيمة « شاعر ذو شخصية لاتندغم في شخصية أحد من الشعراء . في شعره مدى بعيد ، ولشاعريته وجهٌ يميزها عن كل الوجوه ، ولألحانه رنة تعرف بها بين سائر الألحان . كان في صباه فتى محدود الأفق ، ولكنه لم يعتم أن ارتفع إلى النجوم في سماء الأدب ، وانبسط على مدى الأفق وغاص إلى أعمق اللجج[٤٣] » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التعليقات

(١) حددت سنة الولادة في عام ١٨٨٧ في جميع المصادر ماعدا كتاب (أدب المهجر) لعيسى الناعوري ، الذي أضاف اسم الشهر ، وحدده في شهر آب من دون أن يذكر المصدر . ينظر الكتاب المذكور ، طبعة دار المعارف بمصر ، عام ١٩٥٩ ، ص ٤٠٣ .

(٢) من قصيدة (في جلسة طرب) الأرواح الحائرة ، طبعة نيويورك عام ١٩٤٦ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ [تاريخ القصيدة ـ ١٩١٥ م] .

(٣) نادرة جميل سراج ، شعراء الرابطة القلمية ، دار المعارف بمصر عام ١٩٥٧ ، ص ٧٥

(٤) من رسالة بتاريخ ١٣ ت ١ / ١٩٣٧ م . أوردها نعيمة في (سبعون) ، المرحلة الثالثة ص ١٧٥ ، طبعة صادر ـ بيروت ، ١٩٦٠ م

(٥) نعيمة ، المصدر السابق ص ١٧٩ من المرحلة الثانية .

(٦) نعيمة ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ من المرحلة الثانية .

(٧) جورج صيدح ، أدبنا وأدباؤنا ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٩٨ .

(٨) الأرواح الحائرة ، ص ١٧٩ ومابعد ، و ص ٢٠٩ ومابعد .

(٩) الناعوري ، المصدر السابق ص ٤٠٨

(١٠) الأرواح الحائرة ، من ص ١٧٩ إلى ص ١٩٧

(١١) مقدمة الملحمة ، الأرواح الحائرة ص ١٧٨

(١٢) الأرواح الحائرة ص ١٧٩

(١٣) الأرواح الحائرة ص ١٩٦

(١٤) الأرواح الحائرة ص ٢

(١٥) من قصيدة (اشرب وحيدا) ، الأرواح الحائرة من ص ٢١ إلى ٢٣ [تاريخ القصيدة ـ ١٩١٢ م] .

(١٦) الأرواح الحائرة ، ص ٨٧ إلى ٩٠

(١٧) جورج صيدح ، أدبنا وأدباؤنا ، ص ٢٩٦

(١٨) الأرواح الحائرة ص ١١١ [تاريخ القصيدة ـ ١٩٢٠ م] ، ومحمد عبد الغني حسن ، الشعر العربي في المهجر ، دار مصر للطباعة ١٩٥٨ ، ص ١٦٣

(١٩) الأرواح الحائرة ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩

(٢٠) فريد جحا ، الحنين إلى الوطن في شعر المهجر ، المطبعة العربية حلب ، ١٩٥٩ ، ص ٣٣

(٢١) نادرة سراج ، شعراء الرابطة القلمية ص ٣٦١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢٢) الأرواح الحائرة ، ص ٢٢٦ ، قصيدة (قل للعواذل) .

(٢٣) قصيدة (علقت عودي) ص ١٣٨ ـ ١٣٩ من الأرواح الحائرة .

(٢٤) ص ٩١ ومابعد ، من الأرواح الحائرة .

(٢٥) ص ٢٥٢ ومابعد ، من الأرواح الحائرة .

(٢٦) ص ٢٤٥ ومابعد ، من الأرواح الحائرة .

(٢٧) ص ٥٣ ومابعد ، من الأرواح الحائرة ، وينظر كتاب نادرة سراج السابق ذكره ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦

(٢٨) ص ١٥١ ومابعد ، من الأرواح الحائرة .

(٢٩) ص ٨٣ ومابعد ، من الأرواح الحائرة .

(٣٠) عبد الكريم الأشتر ، فنون النثر المهجري ، دار الفكر الحديث بلبنان ، ١٩٦٥ ، ص ٤٥ ـ ٤٦

(٣١) مجموعة الرابطة القلمية ص ٢٧٨ ، والأشتر المصدر السابق ص ٥٣ ، وعليه اعتمدنا في تلخيص قصتي نسيب عريضة .

(٣٢) المصدر السابق ص ١٤٠ ـ ١٤٢

(٣٥) المصدر السابق ص ١٤٨

(٣٦) عدد مجلة السائح الممتاز لسنة ١٩٢٥ ، ص ٨١ ـ ٨٢ ، والأشتر المصدر السابق . ص ٢٦٣

(٣٧) نقلاً عن المصدر السابق ص ٢٦٥

(٣٨) من رسالة نسيب عريضة إلى ميخائيل نعيمة ، نشرها عيسى الناعوري في كتابه الأدب العربي في المهجر ، ص ٤٠٧

(٣٩) صيدح ، المصدر السابق ص ٢٩٦

(٤٠) ميخائيل نعيمة ، جبران ، ص ١٧٧ ، طبعة بيروت ١٩٣٣

(٤١) من رسالة نعيمة السابقة الذكر إلى عيسى الناعوري بتاريخ ٣ ت ٢ / ١٩٤٧

(٤٢) عيسى الناعوري ، المصدر السابق ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ، نقلاً عن رسالة نعيمة المذكورة .

(٤٣) نقلاً عن جورج صيدح ، أدبنا وأدباؤنا ص ٢٩٨ ، ولم يسم المصدر الذي استقى منه هذا الكلام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net